جامعة محمد بوضياف

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

مقياس : منهجية البحث الفلسفي **السنة الثانية**

السداسي الرابع **د / بوزبرة عبد السلام**

لقد شكل سؤال المنهج محطة أساسية في تاريخ الفلسفة باعتباره آلة فكرية، أو تصور عقلي خاص و متسق للوسيلة المنظمة والواجب إتباعها في البحث الفلسفي للوصول إلى نتائج معينة. وهو يختلف عن المنهج العلمي من حيث طبيعته ومبادئه وأسسه، فالمنهج الفلسفي ذات طبيعة استدلالية، يعتمد على فروض أو مقدمات أولية، يسلم الفيلسوف بصحتها، ويستنبط منها نتائجه بالتأمل العقلي، ومادام البحث الفلسفي هو تجربة ذاتية تعبر عن رؤية الفيلسوف الخاصة للوجود والكون والإنسان، فانه لا يمكن الحديث عن تصور محدد للمنهج في الفلسفة فلا يوجد منطق واحد في الفلسفة بشكل تقنية كلية تحكم جميع الفلسفات، ولا يوجد منهاج فلسفي واحد يستطيع أن يجعل أي إنسان قادر على معالجة موضوعات ومسائل وقضايا بكيفية فلسفية، أو أن يحول تأملاته العادية أو إلى تأملات فلسفية، اذ يوجد من المناهج والطرائق التي يمكن للفيلسوف أن يستخدمها ما يريد. فالمهم ـ كما يقول بوبر. أن تكون له مشكلة تستحق النظر أو البحث وان يحاول صادقا حلها، فهناك من الطرائق والمناهج بقدر ما هنالك من مشكلات تستحق البحث.

المحاضرة الأولى : البحث الفلسفي من طبيعة منهجية.

من المؤكد أن الدراسات الفلسفية هي من أخطر الميادين الفكرية التي يخوض في الباحثون ، نظرا لطبيعة القضايا التي يثيرونها، والأدوات والآليات التي يستخدمونها، والغايات التي يستهدفونها، والآثار المترتبة عنها.ومن المؤكد أيضا أن الفلسفة كغيرها من أنماط التفكير الإنساني الفاعل تتأسس منهجية باعتبارها قواعد ضابطة وأسس منظمة يُقاد بموجبها العقل، وأن المعرفة التي لا تتقدم بصورة تنظيمية، تحيل إلى الفوضى الفكرية والسلوكية، وتبديد العمليات العقلية ولهذا الاعتبار بات سؤال المنهج في دائرة البحث يكتسي قيمة معتبرة. فقبل الحديث عن الآليات التقنية التي يستند إليها الباحث الفلسفي في الإمساك بالمعرفة الفلسفية من الناحية

العملية وكيفية ترتيبها توثيقها ... وجب علينا الحديث عن فعل الفلسفة باعتباره عمل ممنهج. وأهم خصائص البحث الفلسفي. و كذا أهم المناهج التي ارتكز عليها التفكير الفلسفي.

أ/ في دلالة كل من الفلسفة والمنهج

إن الفلسفة كنشاط فكري ظهرت ولأول مرة ببلاد اليونان القديمة وذلك حوالي القرن السادس قبل الميلاد على يد مجموعة من الفلاسفة الطبيعيين أمثال طاليس ، وانكسمنس...وقد ظهرت كلمة فيلوسوفوس لأول مرة مع فيتاغورس الذي يعتبر أول من سمى نفسه فيلسوفا ،إي محبا للحكمة وباحثا عن المعرفة ، على اعتبار أن كلمة فلسفة تعني في أصلها الإغريقي محبة الحكمة،فمصطلح فيلوسوفوس ظهر كمقابل لمصطلح سوفوس والذي يعني الحكيم والمدعي لامتلاك المعرفة ، هكذا فإن الفلسفة في أصلها الاشتقاقي في اللغة اليونانية تعني محبة الحكمة والبحث عن الحقيقة بشكل مستمر دون ادعاء امتلاكها ،فالفلسفة في اليونان ظهرت كتفكير عقلاني في مقابل التفكير الأسطوري الخيالي الذي كان سائدا باليونان قبل ظهورها وهو ما ذهب إليه جون بيير فرنان في مؤلفه الأسطورة والمجتمع ، لكن هذا لا يعني أن هنالك تعريفا واحدا وموحدا للفلسفة بين جميع الفلاسفة بل هنالك اختلاف وتضارب في دلالتها من فيلسوف لأخر ، فكل فيلسوف يعرفها من وجهة نظره الخاصة ،فمثلا تعريف أفلاطون للفلسفة ليس هو عينه تعريف ديكارت أو دولوز، فإذا كان أفلاطون يعرف الفلسفة بكونها البحث المستمر عن الحقيقة ’فديكارت يعتبرها بمثابة شجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزيقا وفروعها باقي العلوم الأخرى بما في ذلك الطب والميكانيكا ، في حين يعرفها دولوز بأنها نحت للمفاهيم ،ولعل هذا ما جعل البعض يقول بان الفلسفة لا تعريف لها.

أما عن المنهج فهو يحيل في الدلالة اللغوية إلى السبيل والطريقة والمنوال وأيضا إلى الشاكلة ،أما اصطلاحا فهو طريقة في التعامل مع المواضيع عرضا وطرحا ومناقشة ’ وهو بذلك يتعدد بحسب طبيعة الموضوع (علمي ، أدبي ،فلسفي،ديني) كما يعرف أيضا بكونه الطريقة التي تسلكها الذات العارفة للوصول إلى موضوع المعرفة ،وذلك من خلال الاعتماد على قواعد ومبادئ عقلية صارمة ، فالمنهج بهذا المعنى قد مثل بالنسبة للفكر الإنساني علامة على تميز الأفكار ومجالات المعرفة ،بل إن اكتشاف العلوم ارتبط بنحت منهج سميت باسمه ،إذ اصطلح على العلوم التي تستعمل المنهج التجريبي بالعلوم التجريبية وهو ما أكده الدكتور يوسف تيبس في مقال له بمجلة رؤى تربوية تحت عنوان منهج

ب/ في العلاقة بين الفلسفة والمنهج

لعله من نافلة القول الحديث عن الوشائج الوثقى بين الفلسفة والمنهج فذلك أضحى من البديهيات التي يمكن القول معها بأنه لا وجود لفلسفة بدون منهج، ولا وجود لمنهج دون تنظير وسبق فلسفي وهو ما عبر عنه جون

ديوي بقوله "إن كل منهج يؤسس ويبنى على فلسفة تربوية معينة " فتاريخ الفلسفة يكشف بحق عن هذا الارتباط الصميمي والوثيق بين الفلسفة والمنهاج ، إذ لم يفتأ الفلاسفة أن يتبعوا منهاجا أو طرائق في النظر والبحث ،بل أن البعض منهم جعل من المنهاج الفلسفي خصوصا محور بحثه واهتمامه وخصص لذلك كتبا بعينها كما هو الحال مع روني ديكارت وفرانسيس بيكون في مجال العلم. ولما كان المنهاج ليس واحدا بعينه كما سلفت الإشارة لذلك ،بل أن هنالك مناهج متعددة ومختلفة كل حسب المجال الذي وظف فيه والغرض الذي شيد من أجله، فقد ارتأينا الاكتفاء في هذا السياق بالحديث عن المناهج التي اعتمدت من قبل الفلاسفة دون غيرها وذلك بصيغة الجمع على اعتبار أن الفلسفة لم تعرف عبر تاريخها منهجا واحدا شاملا سلكه كل الفلاسفة في تشييد معارفهم أو الدفاع عنها ،بقدر ما أن هنالك مناهج مختلفة ومتنوعة ، يقول كارل بوبر في هذا السياق: "إن الفيلسوف ليس ملزما على غرار العالم بإرجاع كل شيء إلى الظواهر المحسوسة الخاضعة للملاحظة ،وهذا يعني انه ليس ملزما بأن يقتصر على المنهج التجريبي" فهذا الأخير يعتبر بأنه يوجد من المناهج التي يمكن أن يستخدمها الفيلسوف بقدر ما يريد ، فالمهم هنا هو أن تكون لديه مشكلة تستحق النظر وأن يحاول صادقا حلها، وهو ما ذهب إليه باسكال أيضا حيث تحدث عن مناهج الفلسفة بصيغة الجمع قائلا: "أن هنالك من المناهج ، إي الطرائق التي ينبغي أن نبتدعها بقدر ما يوجد من مشاكل نسعى لحلها".

ولما كانت الفلسفة اليونانية محطة أساسية من تاريخ الفلسفة إلى جانب محطات أخرى فقد كان لزاما علينا الوقوف عند بعض أعلامها وأخص بالذكر هنا كل من سقراط ، أفلاطون ،وأرسطو ، فسقراط الذي قال عنه شيشرون بأنه أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ،قد اعتمد عدة مناهج وأسس لها في طريقة تفلسفه ولعل أشهرها المنهج التوليدي إذ نجده يقول في هذا الصدد"أنا أولد الأفكار كما كانت تولد أمي النساء الحوامل " وهي طريقة في بناء المعرفة تعتمد على منهجية طرح الأسئلة ، إذ كان سقراط يلجأ دوما إلى خلق نقاش مع محاوريه حول قضايا كانت تبدوا لهم واضحة ولا تحتاج المسائلة ، فيبدأ في التساؤل حولها وهو ما عرف أيضا بمنهج التهكم قصد استخراج المعرفة من محاوريه وجعلهم يقتنعون بما كان يصبوا إليه ، هذا بالإضافة إلى كونه اعتمد منهجا أخر عرف بمنهج التحليل اللغوي ، إذ حاول سقراط في العديد من محاوراته هدم الشكوك السفسطائية وأغاليطهم بالوقوف عند دلالة العديد من المفاهيم الأخلاقية والسياسية كالعدالة والفضيلة والصداقة وغيرها من المفاهيم.

في حين أن أفلاطون وبالإضافة إلى المناهج التي اعتمد عليها معلمه سقراط فقد اشتهر بممارسته لفن الجدل ، والذي تعود جذوره الأولى إلى الفلسفة الايلية مع زينون الذي قدم عدة حجج على انعدامية الحركة ،وحدد أفلاطون الجدلي بأنه "ذلك الذي يجيد فن السؤال والجواب وبصيغة أخرى ذلك الذي يتقن فن الحوار ، كما وظف أسلوب المثال إذ نجده يشبه رجل السياسة في كتابه الجمهورية بذلك النساج الذي ينسج بين خيوط

الأثواب... أما أرسطو فقد اشتهر وعرف بطريقته البرهانية وخصوصا القياس الذي يتكون حسبه من مقدمات صادقة أولية وهي مقدمات تصدق بذاتها لا بغيرها كأن نقول : كل إنسان فان ، سقراط إنسان ، سقراط فان،بحيث يتم التصديق بالنتيجة المتوصل إليها عن طريق الإقناع دون تردد ما إن نسلم بصحة المقدمة والتي يشترط صدقها منذ البداية.

هكذا نخلص مع إعلام الفلسفة اليونانية إلى نتيجة مفادها بان المنهج والفلسفة كانت بينهما علاقة وطيدة اذ ان كل فيلسوف اشتهر بمنهج وبطريقة معينة في البحث والتبليغ ، إلى درجة يمكن القول معها بأنه لا يمكن فهم الأنساق الفلسفية لهؤلاء الفلاسفة بمعزل عن معرفة المناهج المؤدية إليها ، فيا ترى هل حضي المنهج بنفس الاهتمام من قبل فلاسفة الحداثة ؟ ام إن الأمر أصبح مختلفا عن ذلك لاسيما مع ظهور العلم؟

إن ما يميز الفلسفة الحديثة عن سابقاتها من الفلسفات وخصوصا الفلسفة اليونانية كونها جعلت من الذات الإنسانية محور اهتمامها ونزعت عنها كل وصاية ، فأصبح الإنسان سيد نفسه وسيد العالم ، من هنا كانت الحاجة الماسة لدى الإنسان لإيجاد كل الوسائل المتاحة والممكنة للسيطرة على الطبيعة والتحكم فيها . وفي هذا السياق بالذات ظهرت العلوم بشتى أنواعها وظهرت معها الحاجة للمنهج بشكل أكثر إلحاحا مما سلف ،اذ كان من المفروض على كل علم أراد الاستقلال بذاته عن الفلسفة أن يجد لنفسه موضوعا ومنهجا يخصانه ، وهو ما فرض على الفيلسوف أيضا أن يفكر في منهج خاص بقضاياه يحاكي منهج العلماء ، وقد كانت فلسفة ديكارت في هذا الإطار بمثابة استجابة لهذا المطلب ، اذ خصص هذا الأخير كتابا بعينه تحت عنوان مقال عن المنهج لتبيان الخطوات الأساسية التي يتعين على كل باحث في مجال الفلسفة خاصة والمعرفة بشكل عام إتباعها قصد بلوغ الحقيقة وتحاشي الوقوع في الزلل ، فهذا الأخير حصر أفعال العقل في فعلين أساسيان هما الحدس والاستنباط ،وعرف الحدس كمنهج سبق وان اعتمد من قبل فلاسفة آخرين أمثال أفلاطون بكونه الرؤية المباشرة للموضوع ، في حين عرف الاستنباط بأنه انتقال من قضية إلى أخرى تلزم عنها بالضرورة وهو فعل يعتمد لمعرفة الأشياء المركبة والتي تحتاج الى الاستدلال بحيث يتم بصدده تطبيق ثلاث قواعد أساسية وهي : التحليل والتركيب والمراجعة ، هكذا تكون القواعد الأربع :البداهة المرتبطة بفعل الحدس ثم التحليل والتركيب والمراجعة المرتبطة بفعل الاستنباط بمثابة منهج صارم يمكن اعتماده لبلوغ الحقيقة المطلقة واليقينية حسب ديكارت ،وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المنهج في الفلسفة الحديثة أصبح يحضى بأهمية قصوى بل انه أصبح أساسا ومرجعا لقيام أي فلسفة ممكنة فلا تفكير بدون منهج.

لكن مع تقدم العلوم التجريبية خلال القرن التاسع عشر وسيادة النزعة الوضعية أصبح المنهج وسيلة تستخدم ضد الفلسفة ، خصوصا المنهج التجريبي الذي تم توظيفه من قبل رواد الوضعية المنطقية كمعيار للفصل بين الفلسفة بوصفها كلاما فارغا ودون معنى وبين النظريات العلمية ، إلا أن هذا التصور نفسه لم يصمد طويلا في

وجه الانتقادات التي قدمها معاصروه ونخص بالذكر تصور كل من كارل بوبر وطوماس كون وكذا بول فيرباند الذي كان يدعو إلى الفوضى المنهجية بقولته الشهيرة :"في العلم كل المناهج ممكنة".

من كل ما سبق يمكن أن نخرج باستنتاج مفاده أن العلاقة بين الفلسفة والمنهج هي علاقة وطيدة يطبعها التماهي والاتصال ، إذ لا يمكن للفلسفة أن تستغني عن المنهج في تبليغ نظرياتها أو في البحث والتنظير ، كما لايمكن للمنهج أن يقوم دون أساس فلسفي، ولعل هذا الارتباط الوثيق بين الفلسفة والمنهج هو ما ساعد المناهج على البروز أكثر والتجدد باستمرار،و في الحين نفسه ساعد الفلسفة على التقدم أن كان بإمكاننا الحديث عن تقدم في الفلسفة ، فظهور منهج جديد يساعد على بناء فلسفة جديدة كما إن ظهور فلسفات جديدة تحتاج للتبليغ والتبسيط يؤدي بدوره الى ابتكار مناهج جديدة وملائمة لذلك.

المصادر والمراجع

- عبد المنعم الحنفى ، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ،2000 .
- محمود حمدي زقزوق ،المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت - دار المعارف، القاهرة، (د.س).
- أحمد أبو أنور وآخرون، قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج، إشراف يوسف زيدان ، الأمل للطباعة والنشر ، القاهرة.
- محمود زيدان ، مناهج البحث الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر. 1977.
- روني ديكارت ، مقال عن المنهج، ت: محمود الخضيري ، القاهرة .1968.